2. المقاربة التفاعلية

1.المقاربة التفاعلية-المفهوم والرؤية-:

تعد المقاربة التفاعلية من أحدث المقاربات في تعليم اللّغات الأجنبية، نتجت عن تطور الدراسات في حقل تعليمية اللّغات والدراسات اللّسانية التطبيقية، تركز على الجانب التفاعلي في تعليم اللّغات بالاستفادة من نظرية أفعال الكلام أهم مُخرج للسانيات التداولية، هذه الأخيرة التي تم بفضلها الانتقال في عملية تعليم اللّغات من وحدة التواصل إلى وحدة الحدث، ومن التركيز على الفرد إلى التركيز على المجموعة، ومن الكفاءة التواصلية إلى الكفاءة الاجتماعية تهدف إلى جعل متعلم اللّغة فاعل اجتماعيا عن طريق القيام بمجموعة من المهمات.

انبثقت المقاربة التفاعلية التواصلية من المناهج اللّغوية الاجتماعيّة، وتعرف بأنّها مقاربة تجعل الكفاءة التواصلية هي الهدف النهائي لمناهج تدريس اللّغات الأجنبية، والمهمة التواصلية وأغراضها هي الوحدة الأساسية لبناء الأنشطة والدروس أي أنّ تعليم اللّغة من المنظور التواصلي التفاعلي لا يكتفي بإكساب المتعلم كفاية لغوية فقط، بل يسعى إلى إكسابه كفاية تواصلية تداولية، وذلك بتحويل المكتسبات اللغوية إلى أداة حية يوظفها باستمرار في مواقف الحياة المختلفة تجعل منه فاعل اجتماعيا.

«إنّ رؤية المقاربة التفاعلية لتعليم اللّغات الأجنبية تقوم على مبدأ الممارسة الفعلية لهذه اللّغة في بيئة تحاكي بيئتها الأصلية، وينظر فيها لمستعمل اللّغة ومتعلمها كجهات فاعلة اجتماعيا مطالبة بأداء مجموعة من المهام تتميز بكونها غير مقتصرة على الجانب اللغوي فقط، وتؤدى في مجال وظروف وبيئة معينين. وإذا قام المتعلم بتحقيق جملة من الأفعال الكلامية أثناء أداء الأنشطة اللّغوية المصاحبة لهذه المهام؛ فهي لا تغدو إلا أن تكون جزءا لا يتجزأ من السياق الاجتماعي الذي يعطي لها معنى».

ويوضح المخطط الآتي آلية العمل وفق المقاربة التفاعلية ضمن الثلاثية (متعلم، مهام منجزة، مجتمع)، التي تسعى إلى إكساب المتعلم مهارات اللّغة المستهدفة بأدائه جملة من المهام، الهدف منها إدماج المتعلم في مجتمع هذه اللّغة باستخدامه الفعلي لها في بيئتها الأصلية أو في بيئة تحاكي هذه البيئة الأصلية.

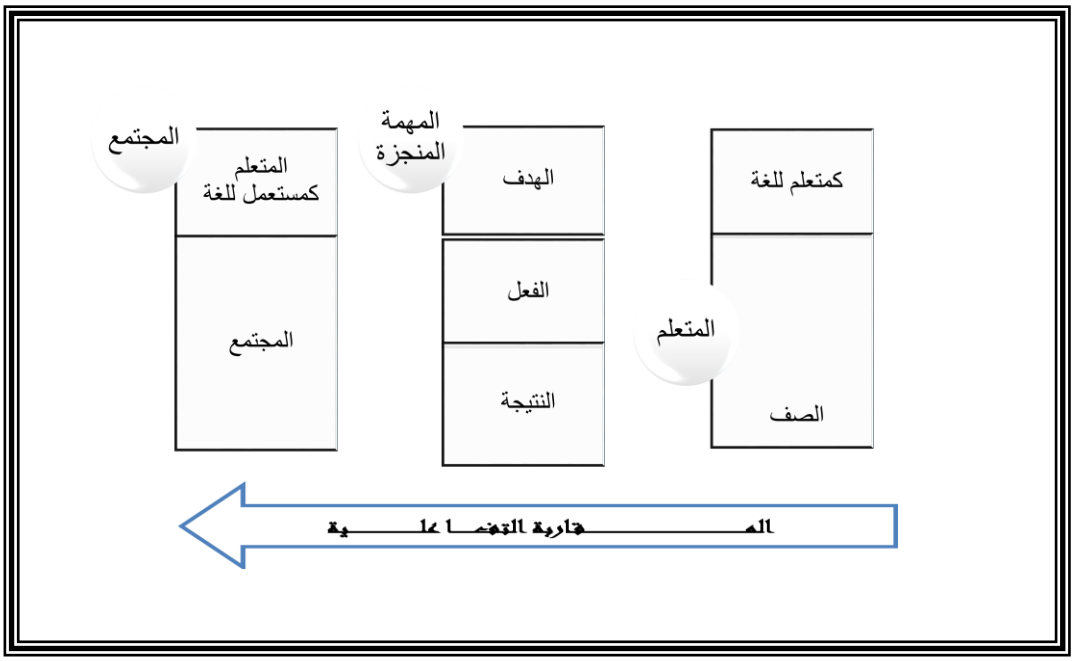

الشكل رقم (6): المقاربة التفاعلية والمهام

وتجدر بنا الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات هو من دعا إلى تبني المقاربة التفاعلية سنة 2001م، «فهدف تعليم لغة ما حسب رؤية الإطار المرجعي الأوروبي لتعليم اللغات ليس مقتصرا على تعليم اللّغة لذاتها فقط، بل الهدف الأساس منه هو تكوين متحدث كفؤ لهذه اللّغة الأجنبية يحاكي في قدراته المتحدث الأصلي مع أفرادها؛ أي أن يكون فاعل اجتماعيا حسب تعدد مواقف التواصل من البسيطة كالاتصال بطبيب لأخذ موعد أو قراءة إعلانات ولافتات إلى المتقدمة منها كفهم النصوص والقدرة على تحليلها، ولما لا تحقيق الغرض الأساسي من وراء تعلمه لهذه اللّغة كعقد صفقات تجارية أو قراءة أدب وتاريخ هذا المجتمع. كل هذه الأهداف تمثل الجوهر الأساسي الذي وضع لأجله الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات، حيث يسعى لتحقيق جملة من المهام اللّغوية الموزعة على عدة مستويات لتحقيق الكفاءات المستهدفة على المستويين الشفهي والكتابي لدى متعلم اللّغة الأجنبية».

2.ظروف تأسيس المقاربة التفاعلية:

إنّ الإطار المرجعي الأوروبي لتعليم اللّغات أول من دعا إلى تبني المقاربة التفاعلية، بالاستناد على الدراسات اللسانية خاصة اللسانيات التفاعلية والتداولية واللسانيات التطبيقية وتعليمية اللّغات الأجنبية، وينظر لعملية التواصل في تعليم اللّغات الأجنبية في إطار هذه المقاربة كنشاط اجتماعي يسمح

للمتعلم بانجاز جملة من المهام والأفعال اللغوية التي تعتبر المهارات اللغوية جزءا منها بهدف الاندماج في مجتمع اللغة الأجنبية.

وتمتد الجذور الأولى للمقاربة التفاعلية إلى نهاية القرن التاسع عشرة حين وضع الأمريكي جون دوي -John Dewey(1859، 1952) أسس بيداغوجيا المشروع (learning by doing) "التعلم عن طريق العمل"، بعد التجربة التي قام بها في المدرسة الملحقة بجامعة شيكاغو، حيث قسم التلاميذ إلى أفواج صغيرة يتعلمون في إطار مشروع القراءة والكتابة والحساب والانتباه للآخرين وتحمل المسؤوليات وبنى "جون ديوي" طريقة عمله على ثلاثة مبادئ تبرر قناعاته هي :

- ❖ لكي يتعلم الطلاب يتعين عليهم العمل وإنتاج شيء ما.
- ❖ على الطلاب أن يتعلموا حل المشكلات التي تصادفهم في حياتهم، وبالتالي يتعلمون كيف يفكرون.
- ❖ على المتعلم التعود على العيش في جماعة وهذا يفرض عليه أن يتعلم ويتعود التعاون مع الجماعة والآخرين.

فوفقا لهذه القناعات الخاصة بيداغوجيا المشروع أسس ديوي للمقاربة التفاعلية، فالمشروع بخصائصه يجعل المتعلم يدرك تمام الإدراك فائدة الموارد والمعارف المقترحة عليه؛ ليس في الوقت الحاضر فقط وإنما فائدتها مستقبلا أيضا، من هذه الخصائص:

- ❖ علاقته بالواقع الفعلي لأنّه ينطلق من حاجة أو حادثة أو ظاهرة،
- ❖ يتضمن إنتاجا موجها إلى الغير،
- ❖ يسمح للمتعلم باستخدام مختلف أشكال التعبير

«إنّ بيداغوجيا المشروع تهدف إلى اكتساب المتعلم مجموعة من المهارات الحياتية، بانجازه سلسلة من المشاريع الهادفة في مواقف واقعية أو محاكية للواقع تكون مفيدة للمتعلم في الوسط التعليمي أو في حياته الشخصية، وهذا أهم مبدأ تقوم عليه المقاربة التفاعلية التي أسس لها جون ديوي في باكتشافه بيداغوجيا المشروع، وبياجيه- Piaget- سنة 1923م بتطويره النظرية البنويـــــة -la constructivisme- كنظرية للتعلم، يفترض فيها بأنّ المعارف تبنى، أي أنّ المتعلم يقوم ببناء المفاهيم والتعلمات الجديدة لوحده ،

وسنة 1924م قام الناشط التربوي سيليستن فراينت– Célestin Freinet- بالحث على ربط المحيط الدراسي بالواقع، فالمعرفة في نظره وليدة الذكاء الاجتماعي أي تتأتى عن طريق المشاركة الفعلية (co-action) ».

إنّ هذه المحطات التاريخية قد أسست للمقاربة التفاعلية هذه الأخيرة التي تدعو إلى تفعيل دور المتعلم في العملية التعليمية، فيبني معارفه عن طريق سلسلة من النشاطات(micro tâche) الجماعية المشتركة (coaction) يوظف فيها مهاراته اللغوية المكتسبة لانجاز المهام النهائية المطلوبة منه -tâche finale- وبالتالي هيكلة العديد من المعارف في مواقف تواصلية تفاعلية ينتج من خلالها أفعال كلامية موافقة للسياق بغرض التواصل والتفاعل مع الآخر.

3.مبادئ المقاربة التفاعلية :

تقوم المقاربة التفاعلية على مبدأين أساسيين هما:

- **المتعلم فاعل اجتماعيا:** يجب أن ينظر إلى المتعلمين كفاعلين في عملية التعلم، فيقتصر دور المعلم على التوجيه ودمج التلاميذ في النشاطات مع اعتبار اللّغة والثقافة وسيلة لتجسيد هذا النشاط لا يقتصر دورهما على التواصل فقط. فلسنا نتواصل لنتكلم مع الآخرين فقط كما ترى المقاربة التواصلية خلال 1980م بل نحن نتواصل لنترك أثر في الآخر ونتفاعل معه.

فالبنى النحوية والدلالية والصوتية أو بعبارة أخرى هذه البني اللّسانية يمكن اعتبارها مقدرة لغوية بمعنى إتقان الأداء اللغوي (savoir-faire) يستند عليها المتعلم لتحقيق الهدف الفعلي من وراء عملية التواصل كإبداء رأيه في قضية ما أو إقناع إنسان بفكرة معينة، فالبنى النحوية والمعجمية إذن ما هي إلا وسيلة لغوية لممارسة فعل التواصل وليست هدف لغوي في حد ذاتها فمتعلم اللّغة عندما يجد نفسه في موقف تواصلي تفاعلي، يفرض عليه هذا الحدث التواصلي استدعاء ثلاثة مكونات أساسية: المكون اللغوي، المكون الاجتماعي باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية بعلاقاتها الاجتماعية ولهجاتها المختلفة، والمكون التداولي باختياره للمحتوى اللغوي واستراتيجيات المناقشة المناسبة لهذا الموقف التواصلي التفاعلي للوصول إلى هدف محدد، فالمعلم عندما يدفع التلاميذ لإنشاء حوارات فيما بينهم فهو لا يستخدم أفعال كلامية فقط بل أفعال اجتماعية (interaction sociale).

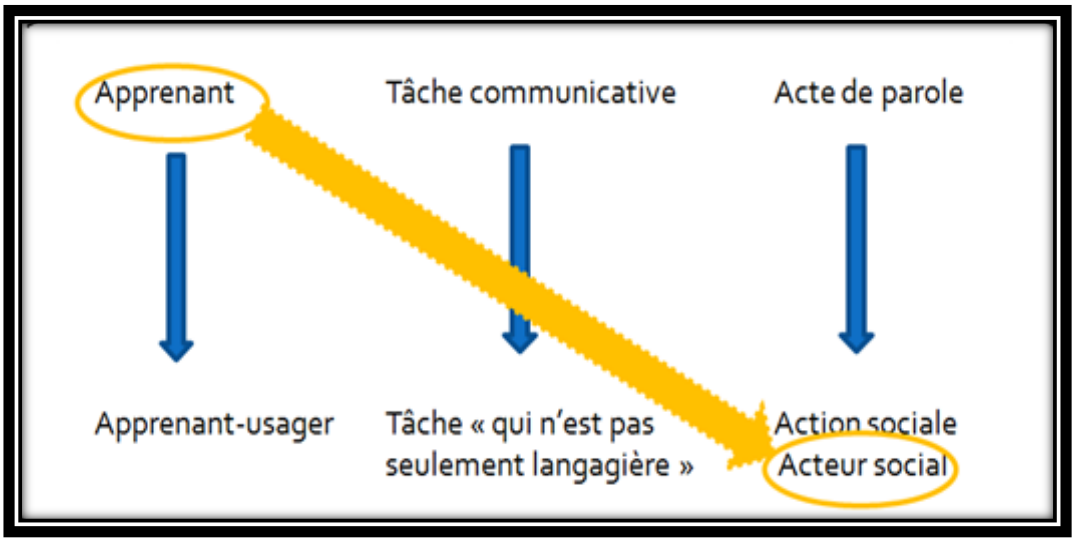

الشكل رقم(7): مخطط يوضح كيفية انتقال المتعلم من متعلم عادي إلى متعلم فاعل اجتماعيا في المقاربة التفاعلية

- **المعلم القائد:** دور المعلم ينحصر في التنسيق والتنشيط والتوجيه وخلق الوضعيات التعليمية ومساعدة المتعلمين في اكتسابهم الاستجابات المناسبة لمختلف الوضعيات التواصلية، وبحرصه أيضا على أداء المتعلمين لسلسلة المهام المطلوبة منهم خلال وحدة تعليمية معينة، فلا ينحصر دوره في تلقين المعارف والتأكد من استرجاعها أو على التوجيه أثناء التمرينات ومراقبة انجازها بل يعتبر المعلم بمثابة المدرب الرياضي لمجموعة من اللاعبين فيتطلب الأمر أحيانا أن يقدم شرحا حول الوضعية الصحيحة للمعصم للقيام بضربة براحة اليد وبالتالي يقوم بشكل غير مباشر بإدماج مجموعة من المهارات اللّغوية المراد إكسابها للمتعلم ككيفية توظيف أسماء الإشارة وأنماط الأفعال، ويدرب اللاعب على القيام برفع الكرة أو تمريرها باستعمال مجموعة من المهارات اللغوية كموافقة النعت للمنعوت أيضا لكن الهدف النهائي يبقى المبارات أو المهمة، باختصار تستبدل البيداغوجيا بالمهام الخطاب الأستاذي بفعل أستاذي يتمثل في:
  - الملاحظة والتحليل، توجيه وتصحيح منهجية تفكيك مراحل انجاز المهام لحلها،
  - البحث عن الأدوات الضرورية لبلوغ هذا الحل وتوفيرها وذلك حسب ما تطلبه الظروف.

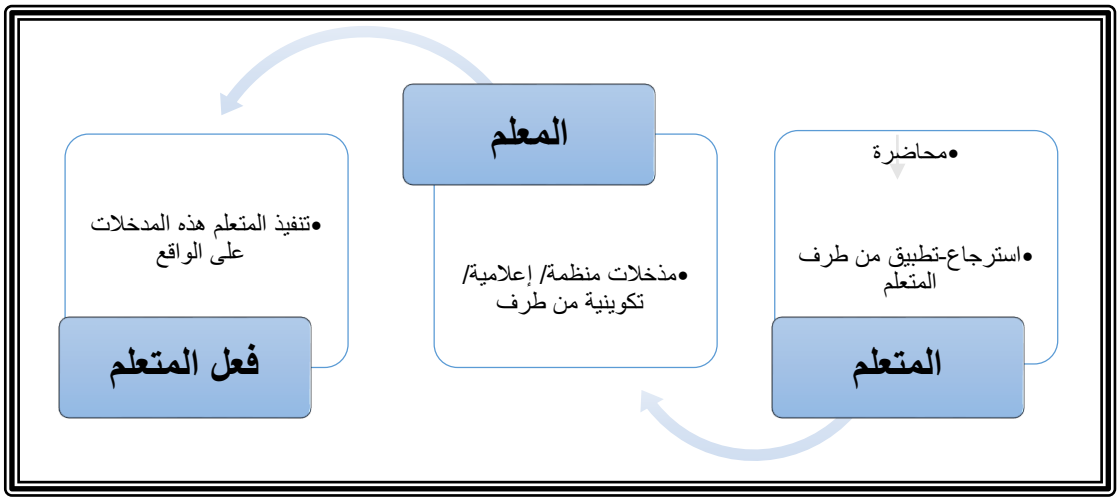

الشكل رقم (8): دور المعلم والمتعلم في المقاربة التفاعلية

4. منهجية تعليم اللّغات الأجنبية في ضوء المقاربة التفاعلية:

كما ذكرنا في المبحث السابق إنّ تعليم اللّغات الأجنبية بما فيها العربية للناطقين بغيرها وفق المقاربة التفاعلية يقوم على إنجاز سلسلة من المهام اللغوية التواصلية تتخللها مجموعة من المهام التواصلية التفاعلية الجزئية، ليس الغرض منها اكتساب اللّغة فحسب بل الغرض منها أيضا ممارسة اللّغة في مواقف فعلية واقعية، من أجل هدف أسمى وهو اكتساب مهارات تواصلية لغوية وغير لغوية تسمح للمتعلم بالاندماج الاجتماعي في مجتمع اللّغة الهدف حسب غرضه من تعلمها، أي أنّ الحديث عن منهجية تعليم اللّغات الأجنبية في إطار المقاربة التفاعلية يقودنا للحديث عن المهام اللّغوية التواصلية، لأنّها هي الأساس الذي تقوم عليه هذه المقاربة. حيث هناك من الباحثين في مجال تعليمية اللّغات الأجنبية يطلقون على المقاربة التفاعلية: بيداغوجيا المهام أو المقاربة بالمهام تحت مبدأ التعلم بالعمل(learning by doing).